تيسير النحو العربي (نقدٌ ورؤيّة)

Faciliter la grammaire (critique et vision)

أ. عبد الوهاب حجازي ♥
إشراف: الأستاذ الدّكتور محمد دويس
المركز الجامعي –صالحي أحمد- النعامة

تاريخ الاستلام: 2019- 03- 15 تاريخ القبــول: 2019- 09- 29

ملخّص: إنّ تيسير النّحو فكرة قديمة جديدة،لكنّها شاعت في العصر الحديث وبشدّة نظرا لما يشتكيه أهل هذا العصر من صعوبة في تحصيله وعسر كبير في تعلمه،فحاول أهل العلم المحدثين الولوج في عمليّة بحث واسعة تشمل جميع الأطراف للخروج بحلٍّ فيصل لهذه الدّعوة،واختلفت الرّؤى من دارسٍ لآخر وبكيفيات متنوعة وأساليبَ متباينة بحسب البيئة و الفئة المستهدفة وغيرها.

كلمات مفتاحيّة: تيسير؛ النّحو؛ التّجديد؛ رؤيّة؛ طرائق

Abstract: The facilitation of grammar is a new old idea, but it has become common in the modern era and strongly because of what the people of this era complain of difficulty in learning and difficult to learn. Modern scholars tried to engage in a wide search process including all parties to come up with Faisal's solution to this call. For a variety of different methods and methods depending on the environment and the target group and others.

Keywords: facilitation, grammar, innovation, difficulty, methods

♥ المركز الجامعي، صالحي أحمد، النّعامة، الجزائر، البريد الالكتروني:
hadjazi20@gmail.com

المقدّمة: إنّ اختلاف التّسميات في الدّعوة لتيسير النّحو لا يختلف في نمطه عن أصل إعادة النّظر في الطرائق من حيث التّلقينُ والتّيسيرُ والتّجديدُ وحتى من حيث المنهجيّة والتّصنيفُ وهذا بدءا من المشاكل التّي يعانيها المعلّم والمتعلم على حد سواء أدّت إلى حد النّفور والشكوى والعسر في التّلقي وهو غير بعيد من حيث ماهيّة الهدف عن منطلق علم تدريس اللغات Didactique des langues .

ضرورة التّيسير رؤيّة تاريخيّة: إنّ مصطلح التّيسير له عدّة مرادفات عند الدّارسين المحدثين من التّبسيط إلى التّخفيف إلى التّجديد إلى الإصلاح وغيرها من المصطلحات القريبة من هذا وذلك نظرا للدعوات المتكررة التّي تجعل النّحو مستعصيا ومنغلقا ومادة جافة وهلم جرا.

وفي حقيقة الأمر فإنّ فكرة تجديد النّحو ليست وليدة العصر بل هي فكرة ونظرة لها من الأصالة والقدم الأمر البالغ ولعلّ الجاحظ صاحب أوّل رميّة جريئة لهذه الدّعوى حين قال في كتاب الحيوان:" قلت لأبي الحسن الأخفش أنت أعلم النّاس بالنّحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها، وما بالنّا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم. قال: أنا لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدّين، ولو وضعتها هذا الوضع الذّي تدعونني إليه قلت حاجتهم فيها إلي،وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التّماس ما لم يفهموا" [1].

من الواضح وجود محاولات عديدة لتجديد النّحو وتيسيره عند العلماء القدامى في الجانبين النّظري والتّطبيقي، ويبدو ذلك واضحاً في الجانب الأول عند الجاحظ في القرن الثّالثّ حيث نجده يذهب إلى مراعاة مستوى عقل الطالب العقلي والذّهني، وبحسب ذلك يُعطى من قواعد النّحو ما يناسب مستواه وله أثر في تقويم اللسان واليد من الخطأ واللحن. يقول: (أما النّحو فلا تشغل قلب الصبي منه بقدر ما يؤديه إلا السّلامة من فاحش اللحن، ومقدار

جهل العوام في كتاب كتبه، وشعر إنّ أنشده، وشيء إنّ وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به من روايّة المثل والشاهد والخبر الصادق والتّعبير البارع [2]،وقد وعى أئمة النّحو وصيّة الجاحظ، فراحوا منذ عصره إلى العصر الحديث يصنعون في النّحو ملخصات ومتوناً للناشئة، وكتباً مطولة للمتخصصين، وفي القرن الخامس الهجري نجد عبد القاهر الجرجاني يطالب بتنقيّة النّحو من فضول القول، وتجاوز المسائل العويصة والمقاييس والتّعليلات في معرض نقده لمن يطعن في النّحو ويزهد فيه، ويأتي بمسائل لا فائدة كما جاء في قوله: (قلنا لهم: أما هذا الجنس فلسنا نعيبكم إنّ لم تنظروا فيه، ولم تعنوا به وليس يهمنا أمره [3].

ويعدّ ابن مضاء النّحوى من أشهر دعاة التّيسير، ومن المناسب إنّ أفرده بالحديث على النّحو الآتي:

أ- ابن مضاء القرطبي (ت 592) يعدّ ابن مضاء القرطبي صاحب أبرز وأشهر دعوة لإصلاح النّحو ظهرت في القرن السّادس الهجري، ومع أنّه قاض وفقيه ظاهري إلا إنّ له عنايّة فائقة بالنّحو، ودراية واسعة وعميقة بدقائقه، وقرأ أمهات مصادره مثل الكتاب لسيبويه، وشرحه للسيرافي وغيرهما، واتّجه إلى إدامة النّظر في كتب النّحو المشرقي، وغاص في أعماقها متأملاً ومفنداً وناقداً ويهدف من ذلك إلى إصلاح النّحو وتيسيره، ويبدو ابن مضاء من خلال كتابه الرّد على النّحاة عالماً مجتهداً وضع يده على مكن الدّاء، وحاول إنّ يضع له العلاج الذّي يراه شافياً، وأن ينقي النّحو من الشوائب التّي لا يرى منها فائدة تحقيق الهدف من دراسته.

وأفصح عن ذلك بقوله: (قصدي من هذا الكتاب إنّ أحذف من النّحو ما يُستغنى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه [4] ويمكن عرض ما توصل إليه في هذا الصدد بإيجاز فيما يأتي:

الأوّل: رفض فكرة العامل رفضاً قاطعاً، وذلك لأن القول به يتطلب إنّ يكون لكلّ ظاهرة إعرابيّة عامل ظاهر أو مقدّر يستدعي إنّ يلجأ المعرب إلى ضروب من التّأويل والتّقدير لا موجب له [5].

الثّاني: اعترض على بعض تقديرات النّحويين حيث أنكر تقدير إنّ المضمرة بعد الواو والفاء في المضارع المنصوب، وأنكر تقديرها بالمصدر.

كما اعترض على تقدير متعلقات المجرورات من قبيل قولنا (زيد في الدّار) [6] فيزعم النّحويون إنّ قولنا في الدّار متعلق بمحذوف تقديره (زيد مستقر في الدّار) ويأتي إلى جانب ذلك اعتراضه على تقدير الضمائر المستترة في المشتقات والأفعال [7]

الثّالث: أنكر العلل التّي هي من عمل العقل كالعلل الثّواني والثّوالث يقول في ذلك (ومما يجب إنّ يسقط من النّحو العلل الثّواني والثّوالث مثل سؤال السّائل عن (زيد) من قولنا (قام زيد) لم رفع، فيقال لأنّه فاعل وكل فاعل مرفوع، فيقول ولم رُفع الفاعل، فالصواب إنّ يقال له: كذا نطقت به العرب. ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر [8]، غير أنّه أقر بالعلل الأُول إذ بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بالنّطق لكلام العرب المدرك منها بالنّظر [9].

3. يرى الاستغناء عن بعض الأبواب التّي لا تدعو الحاجة إليها مثل باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره مثل قولنا (زيداً ضربته) وعرض لمسالتّين في الاشتغال عند أبي الحسن الأخفش، وناقشه فيما ذهب إليه، ويرى إنّ الإطالة في مثل هذه المسائل النّظريّة لا فائدة منها مادام أنه لا يستفاد منها في تقويم النّطق، وهي في نظره مسائل مظنونة غير مستعملة ولا يحتاج إليها ولا تنبغي لمن رأى إنّ لا ينظر إلا فيما تمس الحاجة إليه وحذف هذه وأمثالها من صناعة النّحو مقوٍ لها ومسهل [10]

وقد تأثر بآراء ابن مضاء هذه بعض الباحثين المعاصرين من دعاة التّيسير والتّجديد في النّحو من أمثال الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه إحياء النّحو والدّكتور شوقي ضيف في كتابه تجديد النّحو.

التّجديد عند القدماء: وفي القرن التّاسع يرى ابن خلدون إنّ تنميّة الملكة اللسانيّة إنما يكون بحفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وأشعار العرب وأقوالهم، وعلى هذا الأساس انتقد كتب المتأخرين في النّحو التّي تقتصر على القوانين النّحويّة يقول: (إما المخالطون لكتب المتأخرين العاريّة عن ذلك إلا من القوانين النّحويّة مجردة من أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة، أو ينتبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد عنه [11].

وإذا جئنا إلى الجانب التّطبيقي نجد إنّ النّحاة القدامى عنوا بتأليف كتب في النّحو تتوخى الاختصار والتّيسير بما يتناسب مع مستوى الطلاب بعيداً عن التّعقيد والتّعليلات الفلسفيّة، ومن هذا القبيل الكتب الآتيّة:

الأوّل: كتاب التّفاحة في النّحو لأبي جعفر النّحاس المتوس في سنة 339 وضع فيه القواعد الأساسيّة في النّحو للناشئة فيما لا يتجاوز ست عشر صفحة.

الثّاني: كتاب الجمل في النّحو – لأبي القاسم عبد الرّحمن بن إسحاق الزجاجي، ت (340) وهو من الكتب التّي حظيت بشهرة كبيرة وانتشار واسع لما يبدو عليه من الاتجاه إلى التّيسير والبعد عن التّعقيد والتّعليلات الفلسفيّة وعني فيه عنايّة ملحوظة بالشواهد القرآنيّة والشعريّة والأمثال والأقوال المشهورة، وندرك مدى أهميّة هذا الكتاب من خلال إشادة بعض أصحاب كتب التّراجم ومنهم القفطي الذّي يقول عن الكتاب: (ولعمري إنّ كتاباً عظم النّفع

به مع وضوع عبارته وكثرة أمثلته هو جمل الزجاجي وهو كتاب مبارك ما اشتغل به أحد في بلاد الإسلام على العموم إلا انتفع به [1 2]

الثّالث: كتاب الواضح لأبي بكر الزبيدي الأشبيلي النّحو ت(379). عني فيه بالجانب التّطبيقي من خلال إيراد الأمثلة الكثيرة التّي تدور على الالسّنة يستعرضها بعنايّة، ويقوم ما يحتاج إلى تقويم من التّراكيب المستعملة، وكان يتوخى في ذلك كله نهج التّيسير والسّهولة بما يتناسب مع مستوى المتعلمين الذّهني والعلمي.

الرّابع: الملمع في العربيّة – لأبي الفتح عثمان بن جنى ت (392) مؤلفه إمام من أئمة العربيّة في القرن الرّابع الهجري اشتهر بكتابه القيم (الخصائص) وحينما ألف كتابه الملمع كان يستهدف به النّاشئة من المتعلمين ولذلك لم يتوسع فيه، وإنما اقتصر على الأبواب والمسائل التّي تدعو الحاجة إليها نطقاً وكتابة بعيداً عن التّعمق في المسائل والتّعليلات النّحويّة التّي لا يدركها سوى الضلعين في تخصص النّحو.

الخامس: الأجروميّة – ابن أجروم الضهاجي المغربي المتوفى سنة 723 اقتصر فيه على بعض القواعد النّحويّة الأساسيّة لصغار الطلاب في حدود عشرين صفحة.

ثانياً: التّجديد والتّيسير في العصر الحديث: في العصر الحديث حظي علم النّحو بعنايّة ملحوظة تصب في السّعي إلى تجديده وتيسيره، ولعل من أوائل المبادرات في هذا الصدد ما قامت به اللجنة المشكلة من وزارة المعارف المصريّة عام 1938. وتضم كلًّا من الدّكتور طه حسين، والأستاذ أحمد أمين وإبراهيم مصطفى، وعلى الجارم، محمد أبي بكر إبراهيم، وعبد المجيد الشافعي، وذلك بقصد العمل على تيسير قواعد تدريس اللغة العربيّة، وقد انتهت إلى اقتراحات عديدة من أهمها الاستغناء عن الإعراب التّقديري والمحلي، وجعل بعض علامات

الإعراب أصليّة وبعضها فرعيّة، وأشارت إلى إنّ الجملة تتكون من أساسين مسند إليه ومسند، كما ألغت الضمير المستتر جوازاً ووجوباً ورأت إنّ جل بحوث الصرف من مباحث فقه اللغة التّي لا يحتاجها البادئ بل لا تصل إلى فهمه [13] وفي عام 1947 صدر من المؤتمر الثّقافي العربي الأول بجامعة الدّولة العربيّة توصيات تؤكد على حاجة اللغة العربيّة وقواعدها إلى التّيسير والتّبسيط بما يقربها من مدارك الطلاب على إنّ لا يمس ذلك بحال من الأحوال جوهر اللغة العربيّة وقواعدها، وأوصى المؤتمر بأن يكون تعليم القواعد النّحويّة في عبارات وموضوعات حيويّة تهم التّلاميذ وتشوقهم، وذلك بأن يعرض المعلم على أنظار تلاميذه قطعة في موضوع ملائم ويناقشهم فيها، ويستخلص من خلالها قواعد النّحو والإعراب، واقترحت اللجنة المعنيّة بذلك منهجاً دراسياً يشتمل على ما تراه من موضوعات ومواد النّحو المناسبة لبعض المراحل الدّراسيّة.

وقد كان لمثل هذه التّوصيات والآراء [14] أثر واضح في الجانب التّطبيقي حيث ألف بعض المتخصصين في النّحو كتاباً حاولوا فيها إنّ تسير في اتجاه التّجديد والتّيسير كما فعل الأستاذ إبراهيم مصطفى، وحفني ناصف، وإبراهيم حسن وعلي الجارم، وأمين الخولي، والدّكتور مهدى المخزومي، وأحمد الخوص.

ضرورة التّيسير: في عصرنا هذا بات الكل يشكو من صعوبة النّحو وعسر تعلّمه فأضحى التّجديد والتّيسير أكثر من ضروري فنرى بعض المؤلفات جاءت لهذا الغرض وهي متنوعة من واحد لآخر لكن هدفها واحد ووحيد وإن اختلفت الصيغ أثناء الطرح.

الخطوات العلميّة لتحديث الدّرس النّحوي: إنّ المدرسة الحديثة بدأت معالمها تتضح من خلال جملة الاقتراحات والأعمال التّي ألفها أصحابها قاصدين بذلك تجديد الدّرس النّحوي الحديث. ويمكن تلخيص تلك المعالم في النّقاط التّاليّة

1- ضرورة العمل على الإصلاح الذّي أصبح ضرورة في عصرنا هذا وباتفاق الباحثين

2- ضرورة تنقيّة التّراث وغزالة الغث عنه ليتجرد الأصيل منه و يظهر على حقيقته

3- العمل على دراسة هذه العلوم اللغويّة بمنظور علمي نزيه تماشيا مع متطلبات الحياة العصريّة

4- من حيث الإحتجاج يؤكد أغلبهم على الكلام العربي من حيث صحة الاحتجاج به: القرآن الكريم بجميع قراءاته الصحيحة السّند، ثم ما صح أنه كلام الرّسول نفسه .

5- إنّ يعود الحديث الشريف إلى مكانته اللائقة وما الحجج التّي قدمها القدامى إلا ثغرة عظيمة جدا تتطلب جهدا مضاعفا لإعادة الأمر إلى صوابه

6- إعادة ترتيب أبواب النّحو على خلاف ما كان عليه الأمر عند القدماء والاستغناء عن طائفة من الأبواب والموضوعات، ومنها إنّ تضم مجموعة كثيرة من الموضوعات تحت دائرة الأساليب. وهي جميع الموضوعات التّي تخضع لصيغ محددة يمكن القياس عليها، بدلا من إنّ تكون دروسا نحويّة موزعة لا جامع لها

7- يرى بعضهم (المخزومي - تمام حسان) ضرورة الاستغناء على نظريّة العامل التّي تعلق بها القدامى، وأراد هذا البعض إقناع الآخرين بذلك ولكنهم فشلوا في ذلك

8- إعادة النّظر في تقسيم الكلمة وتحديد أنواعها كأن تكون أكثر مما هي عليه عند القدامى الذّين جعلوها :اسما وفعلا وحرفا. مقترح ين تقسيما

جديدا يرونه أكثر صوابا وتماشيا مع واقع اللغة العربيّة. كأن تكون : اسم أو ضمير أو صفة وفعلا وظرف أو أداة.

بالإضافة إلى كل هذا يرى كل الباحثين إنّ المطلوب في عصرنا هذا هو تيسير الأساليب التّعليميّة التّي تحبب المادة للتلميذ وضرورة حذف الآراء الشاذة والانفراديّة. خراج المادة النّحويّة بأسلوب شيق بعيد عن التّعقيد، تلكم هي مجمل الاقتراحات التّي أصبحت تشكل الملامح الحقيقيّة للمدرسة النّحويّة الحديثة على غرار المدارس النّحويّة القديمة

الاستعانة بطرائق التّدريس: ثمّة علاقة بين التّيسير النّحوي وطرائق تدريس النّحو، فقد تتداخل أحيانًا حتى يصعب فرز بعضها عن بعض لأن هدفهما واحد هو تيسير الدّرس النّحوي للتلاميذ، لكن الأول يتناول المادة النّحويّة نفسها، وبتناول الثّاني طريقة تدريس هذه المادة، وأسلوب عرضها لذلك اتخذها أصحاب التّيسير وسيلة من وسائل التّيسير النّحوي.

أحاول هنا إنّ أتحدث عن الطريقة التّي أحبذ إنّ أسميها (الطريقة الوعائيّة أو الظرفيّة)

والظرف لغة هو الوعاء، هذه الطريقة أراها السّبيل لجعل المادة النّحويّة مهضومة صائغ شرابها إذ إنّ الأوائل كانت لهم أوعيّة للحفظ وهذا ما ساعدهم على النّبوغ فترى أهل العلم لهم حافظة تجعلهم ستنطقون العلوم في قواص الأرض وأينما حلوا وارتحلوا وهنا يقول الإمام الشافعي رحمه الله :

عِلمِي مَعي حَيثمَا يَمَّمتُ يَنفَعُني

قَلبِي وِعاءٌ لَهُ لَا بَطنُ صُندُوقِ

إنْ كُنتُ فِي البَيتِ كَانَ العِلمُ فِيهِ مَعِي

أو كُنتُ فِي السّوقِ كَانَ العِلمُ في السّوقِ

ويقول ابن حزم الظاهري:

فإنْ تُحرِقُوا القِرطَاسَ لا تُحرِقُوا الذّي تَضمَّنهُ القِرطَاسُ بلْ هُو فِي صَدري
يَسيرُ مَعي حَيثُ إستقلَّت رَكَائبي وَينزِلُ إنّ أَنزِل وَيُدفنُ فِي قَبرِي

من هنا نعلم إنّ أساس التّيسير هو الحفظ خصوصا المادة النّحويّة واللغويّة إذْ إنّ العلماء بالأندلس تفطنوا لهذا ووضعوا متونا تعليميّة بالدّرجة الأولى لكن غرضها التّيسير والتّجديد في عرض المسائل وهذا من أجل سهولة استظهارها في أي زمن وفي أي مكان وتحت أي ظرف .

وخير دليل ما نراه إلى يومنا هذا من المحاضر خصوصا في الصحراء الجزائريّة وبلاد شنقيط حيث يستظهر طالب العلم متونا علميّة لا يمكن حصرها مع الضبط السّليم لها من جوانبها على السّبيل الصحيح الذّي تلقّاها عليه.

خاتمة

وفي نهايّة المطاف آمل إنّ أكون قد وفقت في الوقوف على جهود الباحثين والدّارسين قديماً وحديثاً حول قضيّة هامة تتمثل في تجديد النّحو وتيسيره ويظهر من خلال ما سبق إنّ ثمت إجماعاً على ضرورة تيسير النّحو وتذليل أصوله وقواعده على النّحو الذّي يقربه من أذهان الطلاب بعيداً عما يبدوا من كتب بعض النّحاة من تعقيد وجنوح إلى الدّخول في التّعليلات والمحاكمات الفلسفيّة والمنطقيّة التّي لا تجدي نفعاً في تحقق الهدف من دراسة النّحو بما يعود بالنّفع على الدّارس لتقويم النّطق والكتابة وتبرئتهما من اللحن والخطأ.

ويمكن طرح بعض التّوصيات منها :

الأوّل: توحيد مناهج اللغة العربيّة في الدّول العربيّة

الثّاني: إسناد أمر توحيد مناهج النّحو إلى " جامعة الدّول العربيّة"

الثّالثّ: حقا إنّ النّحو العربي يحتاج إلى تطوير حتى يواكب عصر العولمة ، لكن تطوير المنهج يختلف عن تقويضه وهدم أعرافه المشهورة ، فيا حبذا لو شجعت جامعة الدّول العربيّة الباحثين لاكتمال المسيرة المباركة التّي بدأها الأستاذ علي جارم وزميله مصطفى أمين ، لكان أفضل من توجيه التّهم الزائفة إلى النّحو القديم والنّحويين ، هذا للناشئين وكذلك نقترح تشجيعها للباحثين لإكمال المسيرة العلميّة المنفتحة على الطرف الجديد مع الاعتداد بالتّراث، وهي المسيرة التّي بدأها د/تمام حسان ، ود/عبده الرّاجحي و د/أحمد مختار عمر وغيرهم كثير، وستكون النّتائج مثمرةٌ إنّ شاء الله

الهوامش:

[1]- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلميّة، المجلد الأول، ط01.م 1998 ج91/01.

[2]- الجاحظ أبو عثمان: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السّلام هارون، ط01، 1399هـ .ج38/03.

[3]- الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ص 75–77.

[4]- ابن مضاء القرطبي: الرّد على النّحاة، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط01 1399ه- 1979م، ص85.

[5]- ينظر المصدر السّابق، ص 85، 88، 93

[6]- المصدر السّابق، ص. 91 ، 92.

[7]- المصدر السّابق، ص99.

[8]- ينظر المصدر السّابق، ص100 ، 103

[9]- المصدر السّابق، ص.151

[10]- المصدر السّابق، ص.152

[11]- الرّد على النّحاة، ص.127

[12]- القفطي جمال الدّين: إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي بيروت –لبنان، 1406ه- 1986م، ط01، ج160/02.

[13]- ينظر المزيد عن هذه المقترحات كتاب النّحو الجديد للأستاذ عبد المتعال الصعيدي، ص84 وما بعدها، وانظر مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، الجزء الأول، المجلد 32، 1376 .

[14]- نشرت هذه التّوصيات كاملة في مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، الجزء الأول، المجلد 23 صفر 1367، كانون الثّاني 1948، ص139 – 142، وتحدث فيها الأستاذ أمين الخولي في كتابه مناهج تجديد في النّحو البلاغة والتّفسير، ص31 ، 32، وناقش ما توصلت إليه من آراء .